الغـــيرة

دوافعها الجنسية والأنانية — أثرها فى الاجتماع ووضع قوانين الزوجية — تحليلها فى علم النفس — الغيرة كمرض هستيرى — تأثيرها السيئ على الحياة الصحية — علاجها

للأستاذ حسن مظهر

لعبت الغيرة دورا هائلا فى الحياة الاجتماعية من يوم الخليقة إلى الآن، ولم يقتصر دورها على الانسان فحسب ، بل تخطاه الى الحيوان ... فكل مخلوق يغار حتى الأطفال ، حتى الطير، حتى بعض الحشرات والأسماك، وذلك لأن الغيرة غريزة تثور وتنفعل بدافعين خطيرين لا يمكن اغفالها فى حياة أى مخلوق، وهما الحب الجنسى والحب الذاتى .

وقد قسم قاموس وبستر Webstor الغيرة الى نوعين : الأول وينشأ من العلاقات الجنسية ، وهو عبارة عن شعور أو قلق ينتج من خوفنا من مزاحم قد يسلبنا قلب الشخص الذى نحبه ، أو ينتج من الشك فى أن هذا المزاحم البغيض قد سلبنا فعلا ذلك القلب .

أما النوع الثانى فينشأ من حب المرء لذاته ، وينتج من كراهة الانسان لشخص غيره يتمتع بالفائدة التى يتمناها لنفسه ، أو ينتج من الخوف من أن يتمكن الشخص المشار اليه من التمتع بالفائدة المذكورة .

وتشاهد هذه الغيرة المتولدة من الإثرة وحب النفس شائعة بين أهل المهن الواحدة وفى كثير من الأوساط العائلية والأدبية ، وهى إذا كانت مستترة فى بعض الناس فلا يعنى ذلك أنها معدومة ولا وجود لها، ولكنها ككل غريزة تكون داجعة كامنة وتظهر فى المناسبات والحوادث التى تستفزها الى الظهور ، فقد يكون الأطفال أو الإخوة ينعمون بحياة وادعة لا يعرفون فيها الغيرة إطلاقا ، ولكنهم إذ يلاحظون أن فائدة هامة قد اختص بها أحدهم دونهم لا يلبثون أن يحسوا سريعا بالحزن والغضب ، واذا بانفعال الغيرة يجول فى قلوبهم ، فنجد الطفل عندئذ يحاول أن يضرب أخاه ليأخذ منه العوبة أعطاه إياها أبواه ... كما نجد الأخ الكبير يكظم غضبه على أخيه الصغير فيحقد عليه ، لأنه ظفر بعطف أبويه ، أو لأنه حظى بميراث دونه .

ولعل أبرز مثل على هذه الحالة قصة يوسف الصديق عليه السلام ، فقد غار منه إخوته وكرهوا رؤيته لأن أباهم يعقوب أحبه أكثر منهم ، فكان أن ألقوه فى بئر ماء وقالوا إن الذئب قد أكله منهم وهم عنه غافلون .

وكذلك قصة المأمون والأمين ولدى الخليفة العباسى هارون الرشيد ، فقد حقد الأمين على أخيه من أبيه المأمون لأن الأخير كان ينعم أكثر من الأول بعطف الرشيد حتى عقد له ولاية العهد ، فكانت منازعات وحرب ، ولم يستقل المأمون بالملك الا بعد مقتل أخيه الأمين فى خراسان .

ويستغل رجال التربية شعور الغيرة الأنانى فى دور العلم ورياض الأطفال ، لأن معظم الطلبة أكانوا صغارا أم كبارا يميلون الى الطموح والاستعلاء فيغار بعضهم من بعض ويتنافسون محاولين الفوز بقصب السبق على الآخرين ، حتى يحوزوا رضاء المربين أو الجوائز الأدبية والعلمية .

كما لوحظ أن التجار وأرباب الأعمال ينافسون بعضهم بعضا بدافع الغيرة الناشئة من الإثرة ، إذ ينظر كل منهم الى الآخر نظرته الى مزاحم يتهدده فيما يرجوه لنفسه من الربح والنجاح ، ومن ثم يندفعون الى تحسين أعمالهم بالكد والابتكار لاكتساب ثقة الزبائن والعملاء ، وقد يندفع بعضهم الى طريق الشر والكيد للتخلص من المنافسين .

ومن هنا كان للغيرة الأنانية خطرها على الحياة الاجتماعية العامة ، فهى كثيرا ما تتحول من شعور بالضيق والكراهة الى أعمال كيدية انتقامية لا توقع الأذى بفرد أو بمجموعة من الأفراد فقط وانما بشعوب وأمم بأسرها ، وذلك ما حدث فى التاريخ لكثير من الدول مزقتها غيرة حكامها بعضهم من بعض ، وخلافهم فى سبيل الحظوة بالسلطة والرياسة ، وأكبر حادث فى التاريخ الاسلامى من هذا القبيل تمزق وانهيار دولة بنى الأحمر فى الأندلس .

الغيرة تساعد على تأسيس نظام الزوجية :

ونعود الى الغيرة الجنسية فى المجتمع الانسانى القديم والحديث ، فنجدها قد أدت الى وقوع كثير من المعارك بين الرجال والقبائل فى المجتمعات البدائية ، فقد كان من عادة أدل تلك العصور السحيقة أن يحتكر شيخ القبيلة لنفسه أجمل الفتيات الصغيرات ، مما يستثير غيرة الشبان ويجعلهم يتطاحنون ويتقاتلون ، كما كان الزواج يتم بنظام همجى خال من الروابط المدنية والسنن الدينية ، ومنه زواج الجملة وزواج الاشتراك ، ومنه اقتناء النساء ، بالمال أو بالقوة... وهذا ما بعث بالغيرة تجول وتصول فى تلك الهيئات حيث صار الكثيرون يتطلعون الى ما فى حوزة الآخرين من النساء ، ويستخدمون لغايتهم العراك والاعتداءات .

وكان طبيعيا أن تلفت هـذه الحال الفوضوية نظر الناس الى ضرورة وضع قوانين للعلاقات الزوجية تحول دون المنازعات الجنسية ، فظهرت أولا شرائع الزواج المدنية التي تعتبر المرأة ملكا أو متاعا للرجل ولا يحق لرجل آخر أن ينازعه ملكيتها ، ثم تعدل نظام الزواج فأصبح اجتماعيا مقيدا بالحقوق والواجبات الشرعية ، وهكذا كانت الغيرة من أهم العوامل التي أسست النظام العائلي الاجتماعي .

تحليل شعور الغيرة :

وقد حلل بعض العلماء شعور الغيرة الجنسي فعبروا عنه بأنه نوع من الملكية ، بدعوى أن الرجل يملك زوجته ومن ثم يغار عليها ، وهو تعبير خاطئ مستمد من فكرة اعتبار المرأة متاعا ، ويهمنا أن الممتلكات مهما يكن شأنها من الإعزاز يمكن بيعها مقابل مبلغ مرض دون أي شعور بالغيرة ، أما في الزواج فلا تحتمل الغيرة فكرة مشاركة الملكية مع شخص دخيل .

والتعريف العلمي الصحيح لغيرة الجنس أنها لون من ألوان التغضب العنيف على منافس يكرصفو الانسان و يتهدده في شيء عزيز عليه . . وهي في الوقت ذاته محاولة من المرء ليمنع شعوره بالانحطاط . أي ثورة نفسية منه دفاعا عن كبريائه وعزة نفسه . وذلك لأن الانسان المرتبط بخطيبة أو المقترن بزوجة يحس أن شخصيته معظمة في نظر نفسه لأنها محترمة في نظر شريكته ، كما يشعر بسعادة من عطفها عليه وحبها له . بيد أنه عند ما يظهر له شريك ، أي خصم ، يحظى بالتفضيل عليه يدرك في الحال بأنه قد اعتدى على حقه فينقم على هـذا المعتدي ، ثم يحس أن كبرياءه قد أهانتها زوجته ، وأن رجولته قد احتقرتها بخيانتها و إيثارها شخصا عليه ، فيحنق على هـذه الزوجة المنحطة و يشمئز منها ، كما يشعر بأنه قد فقد تلك السعادة العزيزة من المحبة والوفاء اللذين تحولا الى غريمه ، فيتألم و يكتئب . ولا يدري إلا وهو يغلي بمجموعة مشاعر قاسية طاغية ، هي الغيظ والاشمئزاز والألم . وهذه المشاعر الهائجة تتألف منها الغيرة ، وقد تجيء في بعض الأحيان مندفعة عمياء الى حد أنها تفرق العقل في موجة من الصخب واليأس لا يستطيع معها الانسان حكم نفسه ، فينطلق بغير مراجعة الى الانتقام إرضاء لرجولته الجريحة وشرفه المهان . وقد يعتدي في ثأره بالقتل . . وقد يجن !

ونحن نقرأ كثيرا في الصحف عن هذه الغيرة اليائسة القاتلة وكيف أثمرت جرائم مروعة ذهبت فيها الأرواح ، كما حدث في فاجعة المرحوم الضابط شكيب منذ نحو عام . . . كما طالعنا قصصا دامية عديدة تدور حول هذه الحالة المروعة من الغيرة ولعل أبلغها قصة ميديا Midea التي وضعها القصصي الإغريقي الخالد " يور بيد " وصور فيها " ميديا " التي كانت تعيش عيشة راضية مع زوجها " جاسون " فأصابتها نوبة الغيرة الجنونية إذ رأت رجلها يريد

الزواج من غيرها ، فسخطت عليه الى حد أنها كرهت أطفالها الذين أنجبتهم منه فعمدت اليهم فقتلتهم ودست السم لزاحمتها العروس وأحرقتها بالنار !

كما نجد تحليلا علميا دقيقا لهذه الغيرة فى قصة عطيل " Ottells " التى ألفها الشاعر الانجليزى الشهير شكسبير . فقد اشتعلت نفس عطيل — وهو قائد بربرى — عند ما أبلغه أحد أصدقائه الوشاة كذبا أن زوجته " ديدمونه " تخونه ، ففقد قواه الواعية ولم يتمهل أو يتأمل ، بل اغتال زوجته . . . على أنه عند ما وقف على الحقيقة وأنه أزهق الروح بالظلم أنبه ضميره ولم يسعه إلا الانتحار بجانب قتيلته البريئة . .

الغيرة المريضة الوهمية :

وقد اتضح للباحثين فى علم النفس الحديث أن المصابين بالأمراض العصبية ومدمنى الخمور هم أشد الناس غيرة على الاطلاق . . . فهؤلاء يتشككون بطبيعتهم ، ويهتاجون من أى مؤثر ، ويكون هياجهم النفسى فظيعا عند ما يزعمون أو يتصورون أن هناك خيانات من شركاء حياتهم . ويعتبر العلماء غيرتهم ضربا من المرض أو الجنون .

وأصحاب هذا المرض يعكرون صفو حياتهم بأيديهم ، ويسممون هناءهم الزوجى والعائلى ويملأون جوهم بالقلق والعذاب . إذ غالبا ما تخترع مخيلاتهم خيانات وهمية يظلون يفكرون فيها ويكبرونها . فيؤولون كل حركة وكل كلمة بحسب أذهانهم الملبدة بوهم الخيانة ، وكل ما يرونه أو يسمعونه يزنونه بميزان الغيرة ! وقد يثور إحساسهم من مجرد حكاية فارغة أو نظرة بسيطة ، بل حتى موقف الدفاع عن خادم يتخذونه سندا للاشتباه والاتهام ! ولا يكتفون بذلك وإنما كثيرا ما يلجأون الى وضع شركاء حياتهم تحت الرقابة ، فيرسلون فى أثرهم المخبرين ويبثون العيون لمعرفة ماذا يفعلون وأين يذهبون !

وهم يأتون هذه التصرفات بدافع فرط حبهم ، معتقدين أنهم يمنعون بها الخيانة المزعومة التى تفزعهم وتبلبل خواطرهم . . . غير أن الحقيقة أن تصرفاتهم تنعكس ضد غرضهم ، فأتى لهم بما كانوا يخافونه وهو تدمير سعادتهم الزوجية وإبادة الحب والوفاء . . إذ لا يلبث هذا الضغط المتوالى وهذه الهستيريا المزعجة غير توليد الشحناء ومضاعفة النكد والبغضاء مما ينتهى دائما بتحطم العائلة ويؤدى بالغيورين الى المصحات العقلية ، أو الى السجون لارتكابهم الجرائم فى لحظات الجنون . . .

وخطورة غيرتهم أنها ليست شعورا مؤقتا يذهب بذهاب أسبابه ، ولكنها شعور مرضى ، متأصل ، دائم ، متكرر الثوران لأتفه الأسباب .

وقد قام العالم النفساني المعروف ادلر Adler بأبحاث قوية في هذا الموضوع فظهر له أن هؤلاء المرضى تصدر منهم أنواع غريبة للغاية من الأعمال . . . فهم يعيشون في كهف نفسي مظلم تطاردهم فيه أشباح الأوهام وتتضخم فيه عوامل الكمد والانتقام . ومن خصائصهم أنهم تنقصهم الثقة بأنفسهم بأنهم محل حب زوجاتهم ، ولذا فانهم في خوف وتقلقل دائمين من هذه الناحية . كما أنهم يحاولون دائما بباعث غيرتهم العصبية أن يعلنوا عن شخصياتهم بالحديث الكثير وبادعاء المفاخر والتظاهر بالعظمة لكي يجتذبوا اليهم أنظار محبوبيهم وينالوا تقديرهم . ومن عادتهم أنهم يحصرون فكرهم في ملاحظة مبلغ تأثيرهم على محبوبيهم ومراجعة ما حدث منهم وتأويله بما تتطلبه غيرتهم . . .

كما ظهر أن الناس المسنين تلتهب غيرتهم دائما اذا اقترنوا بمن هم أقل منهم أعمارا بفارق كبير . وسر ذلك أن كبار الأسنان لا يثقون بأنفسهم كمحبين لائقين ، ولهذا يغارون بعكس الأشخاص المعتزين بشخصياتهم ولياقتهم .

وغيرة العجائز حادة شنيعة ، لأنها رد شعورهم العميق بالعجز ، ومحاولتهم تحقيق المستحيل في أن يستحيلوا شبابا ، ويأسهم من أن يتحكموا في شركاء حياتهم .

ويعتقد عالم النفس "ستنداك" ان النساء تعاني غيرة أعنف مما يعانيه الرجال . ويعزو أسباب ذلك إلى أن المرأة ترى في الزوجية كل مستقبلها وهنائها ؛ فاذا ما طرأت عليها مزاحمة تريد سلب مركزها ، فانها تنقد بالغيرة وتكاد يضل عقلها . وهي في ضلالها وثأرها تستخدم الحيل الاجرامية كطرق الإيقاع ودس السم وما اليه . وإن كيدهن لشديد !

ومن الغيرة المرضية ما يأتي ردا لشعور الشخص بذنبه ، فقد يذنب أحد الزوجين ويخون شريكه في الخفاء . ولكنه لا يعتم أن يقع من حيث لا يدري تحت تأثير الشك في شريكه البريئ ، إذ يتوهم أنه يخونه أيضا ، ثم يتخبط بنار الغيرة !

وكذلك يثور هذا الشعور المرضي ضد مزاحم تافه لا أهمية له . كأن يغار أحد الشريكين من أن شريكه يهتم بكلابه أو ثيابه أو خيوله أو كتبه أو زهوره . إذ يرى الشريك الغيور في هذه الأشياء مزاحما يشغل عقل وميل شريكه ويمنعه من الوجود معه . وكثيرا ما سممت هذه الأشياء حياة الأزواج حتى لقد وقع الطلاق بسببها في بعض الحالات ! .

تأثير الغيرة وعلاجها :

والغيرة شعور مكروه يؤذي ويعذب الجنسين على حد سواء ، ولها تأثير ضار على الجسم والصحة العامة ، فهي تؤثر على الكبد وعلى بعض الغدد ، وعلى ضربات القلب ونظام النفس وعلى الجهاز الهضمي ، وصاحبها يكون أصفر اللون ، مكتئبا ، مضطرب الأعصاب ، وهي

تعجل فى شيخوخته وتغير منظر سحنته . وإذا استشرت معه أصابته بالأمراض العصبية وأخصها "الماليخوليا" و "الهستيريا"، ويعدها العقلاء ضربا من الحمق ان لم يكن الجنون .

وذوو الشخصيات السليمة القوية يستفيدون منها لأن انفعالها يجعل العقل ينشط أكثر من عادته ويفكر بنظام جديد قد يتخلله الالهام . وهنا تتكشف لهم الحقائق وحلولها فان وجدوا خطأ أصلحوه فى تبصر واتزان .

أما أولئك الغيورون المرضى الذين مر ذكرهم فخير علاج لهم هو إظهار تفاهة السبب الذى أهاجهم . وإذا تفاقمت حالتهم المرضية فيمكن للطبيب أو صديق العائلة أن يصلح الأمر بالاقناع والايحاء المهدىء لإزالة ما علق فى مخيلاتهم من الأوهام التى لا تستند على الدليل والإثبات، لأن الشخص المشتبه فيه لايستطيع أن يقنع شريكه ببراءته ما دام هذا الشريك يتهمه ويعتقد باثمه .

ويجب على المرء أن يحتفظ فى جميع حالات الغيرة برويته وتبصره فلا تغلبه نفسيته ، والا يخط إلى درك الوحشية بالانتقام وهو إجرام ... يجب عليه ألايندفع بابرام الحكم وتنفيذه وألا يتبع هواه :

فآفة العقل الهوى فمن علا على هواه فقد نجا

حسن مظهر

من كلام الإمام على

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعة ربه وبكى على خطيئته ، فكان عن نفسه فى شغل، والناس منه فى راحة .